ويبقى الأمل فى سنة الأخذ والاستئصال

بينما تطالع أشلاء الأطفال الممزقة في سوريا من البراميل المتفجرة، وأجسادهم المتفحمة في سيناء من ضربات الطيران الحربى لجيش كامب ديفيد، ورقابهم المفصولة عن أجسادهم في غزة من القصف الصهيونى للقطاع.

وعندما تسمع عن مسخ بشرى يغتصب طالبة ضعيفة منكسرة مظلومة بجامعة الأزهر أربعة عشر مرة وفي نهاية المشهد العبثى الأليم يستنكر عليها أنها ليست عذراء لأنها أصلاً متزوجة!

وعندما تشاهد حيوان بهيكل بشري يعذب أيتام مساكين لاحول لهم ولاقوة في دار للأيتام بالهرم بوحشية مفرطة في مشهد مؤلم تتقيأ منه النفس السوية.

يتبادر في ذهنك بعد هذه المشاهد ومثيلاتها سؤال أزلي: أين االله مما يحدث بأطفالنا ونسائنا وأمتنا؟ وإلى متى سنبقى هكذا نُنهش أعراضنا ونُسفك دماؤنا ونُنتهك حرماتنا؟

لماذا لا يخسف االله الأرض بالصهاينة المجرمين وعملائهم الخونة من العرب المتصهينين والسفاحين والطغاة كبشار الأسد والسيسي وغيرهم من الظالمين الفجرة؟!

وتقرأ قول االله العزيز الجبار {وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم} البقرة: 49، وتقول ما الحكمة الربانية في ترك فرعون يسقي الناس ألوان العذاب ويقتل الأطفال ويذبح أبنائهم وينتهك النساء وأعراضهن ثم ينجيهم منه بعد كل ذلك؟! لماذ يتأخر المدد الإلهي حتى هذا الحد من العذاب الجسدي والنفسي للفئة المظلومة .. لماذا؟!

اقرأ معى قول االله – سبحانه وتعالى – {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم

شديد} يرتاح ضميرك وتقول متى يارب؟ متى يارب تأخذ هذه القرية؟!

قرية المسوخ البشرية والزومبيين الذين أكلوا وشربوا واستمتعوا فى الدماء وسفكها والأعراض وانتهاكها والحريات وتقييدها والأطفال ويتمها بل وقتلها وتعذيبها والنساء الأرامل الثكالى وضعفهم واستلذوا للذل وخضعوا للعبودية وعشقوا الإهانة وشربوا النعوجية والخنوع.

ومع توافر أقصى درجات الظلم والطغيان من القرية الباغية وأهلها ووصولها إلى الحد الأقصى من أسباب العذاب وأعراض الهلاك وحتمية الأخذ وصور الاستئصال فاقرأ معى كلام نفيس للدكتور "منقذ بن محمود السقار" عن أسباب وقوع عقاب الله وعذابه للأمم وصور هذا العذاب وأنواعه.

أسباب وقوع العذاب على الأمم:

(1) الظلم والطغيان:

وأي ظلم وطغيان أشد من قتل الناس وسفك الدماء وانتهاك الحرمات واعتقال الفتيات وسجن الحريات وإزهاق الأرواح وسرقة الأوطان والأعمار.

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} الكهف: 59.

{وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} هود: 102.

{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ} الأنبياء: 11.

{فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ} الحج: 45.

قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)) [أبو داود ح 4338، الترمذي ح 2168، أحمد ح 30].

(2) انتشار المنكرات وغياب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وما أكثر المنكرات فى بلاد الشعوب المتدينة بطبعها!

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} الإسراء: 17.

قال القرطبي في تفسيرها: "ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم أنبياءهم" [تفسير القرطبي 6/391].

قال الطبري: "وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوح إلى زمانكم قرونًا كثيرة كانوا من جحود آيات الله والكفر به وتكذيب رسله على مثل الذي أنتم عليه، ولستم بأكرم على الله تعالى منهم لأنه لا مناسبة بين أحد وبين الله جل ثناؤه، فيعذب قومًا بما لا يعذب به آخرين أو يعفو عن ذنوب ناس فيعاقب عليها آخرين" [تفسير الطبري 15/57].

قال ابن تيمية: "وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان" [العقود الدرية 1/137].

قال القرطبي: "وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع" [تفسير القرطبي 1/401].

(3) العتو والكبر والغرور وكفران النعم.

الأمة العاتية المغرورة المستكبرة المتجبرة بقوتها وسطوتها وسلاحها أمة تعرضت لعقوبة الله ونازعت الله ما يستحقه من الكبرياء والعظمة ... قال تعالى {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ

مّن قبْلُ إنّهُمْ كانُوا هُمْ أظلَمَ وَأطغَى} النجم: 52-50.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم وأعظم كفرًا بربهم وأشد طغيانًا وتمردًا على االله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم االله به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم" [تفسير الطبري 27/78].

{أولمْ يَسيرُوا فى الأرْضَ فيَنظرُوا كيْفَ كانَ عَاقبَةُ الّذينَ مَن قبْلَهَمْ كانُوا أشَدّ مَنْهُمْ قوّةً وَأثارُوا الأرْضَ وَعمَرُوها أكثرَ مَمّا عَمَرُوها وَجَاءتهُمْ رُسُلُهُم بالبَيّنات فمَا كانَ اللهُ ليَظلمَهُمْ وَلكن كانُوا أنفسَهُمْ يَظلمُونَ} الروم: 9.

ولعلك تجد معى أن االله ابتلى الأمم الغابرة الظالمة بأصناف العذاب البالغة، وهذا العذاب على ضربين:

أولهما:

عذاب الاستئصال، وهو الذي يودي بجميع الأمة فلا يبقي منها ولا يذر، كما حصل مع قوم نوح عاد وثمود.

والثاني:

هو ذلكم العذاب الشديد الذي يصيب الأمة ويزلزلها كالطواعين والطوفان والكوارث من خسف ومسخ، وقد عذب االله به فرعون وبني إسرائيل، وهذا النوع من العذاب لا يؤدي إلى فناء الأمة المعذبة برمتها.

وقد ذهب أهل العلم إلى أن النوع الأول قد رفعه االله عن البشرية ببالغ رحمته، ولو عذبهم به كان عادلاً جل وعلا: {وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَابَّةٍ} [فاطر:45]، ولم يرفع من هذا العذاب أصل جنسه، إذ من الممكن أن يسلط االله الريح أو الحاصب على أمة من الأمم من غير أن يستأصلهم به.

قال الحافظ المقدسي: "وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارًا وأعظم قوى وأعتى على االله وعلى رسوله، فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال، وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين، فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته" [مفتاح دار السعادة 1/255].

ويبين شيخ الإسلام أن الاستئصال إنما رفع برسالة موسى عليه السلام فيقول: "وكان قبل نزول التوراة يهلك االله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذابًا عاجلاً، يهلك االله به جميع المكذبين كما أهلك قوم نوح وكما أهلك عادًا وثمود وأهل مدين وقوم لوط وكما أهلك قوم فرعون،.... إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال، بل قال تعالى: {وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ} [القصص:43]، بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي يعذب بعضهم، ويبقى بعضهم، إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر، ولهذا لم يزل في الأرض أمة من بني إسرائيل باقية" [الجواب الصحيح 6/442].

ويقول – رحمه االله – مبينًا الصورة الجديدة التي أرادها االله لردع أعدائه، ألا وهي الجهاد لهؤلاء الكفار ومراغمتهم حتى لا تبقى فتنة ويكون الدين الله: "المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك االله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة" [الجواب الصحيح 2/251].

قال شيخ الإسلام: "وكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمدًا أن لا يهلك قومه بعذاب

الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم، بل عذب بعضهم بأنواع العذاب كما عذب طوائف ممن كذبه بأنواع من العذاب" [الجواب الصحيح 6/443].

ولما بعث رسول الله كان رحمة للبشرية جمعاء كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ} [الأنبياء:107]. قال ابن عباس: "كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس، فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق" [القرطبي 11/350].

ومن صور العذاب الكثيرة:

1. الغرق والطوفان:

وهو أول عذاب استئصال عذب الله به الكافرين من قوم نوح {فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ} [العنكبوت: 14].

{مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟} [نوح: 25]، قال ابن كثير: "من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا نارًا" [تفسير ابن كثير 8/263].

ثم عذب الله فرعون وجنوده بالغرق في اليم {فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ} [الأعراف: 136]، {فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء: 77].

كما عذب بالسيل والطوفان مملكة سبأ {فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ} [سبأ: 16-17].

وهدد الله الآمنين من مكره بعذاب الغرق فقال: {أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا} [الإسراء: 69].

2. الريح:

وهو عذاب الله عذب به قوم عاد لما كفروا بربهم.

{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرَ عَاتِيَةٍ} [الحاقة: 6]، ويقول: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} [فصلت: 16].

{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: 24].

وقد كان نبينا إذا رأى ريحًا خاف وظهر ذلك في وجهه، وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله كان إذا عصفت الريح يقول: ((اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)) [مسلم ح 889].

تقول عائشة رضي الله عنها: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال: ((يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، ورأى قوم العذاب فقالوا: {هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا}) [البخاري ح 4829، مسلم ح 889].

3. الصيحة:

والصيحة هي كما قال القرطبي في تفسيرها: "صيح بهم فماتوا، وقيل صاح بهم جبريل، وقيل غيره، وقال أيضًا: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم" [تفسير القرطبي 7/42، 9/61].

وهي عذاب الله الذي عذب به قوم صالح {وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَارِهِمْ جَٰثِمِينَ}

[هود: 67]، وقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} [القمر: 31].

ويهدد الله المشركين بمثل هذا العذاب فيقول: {وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} [ص: 15].

4. الحاصب:

والحاصب كما قال أبو عبيدة: الحجارة وقال ابن حجر: الحصباء في الريح. [انظر تفسير القرطبي 17/143، فتح الباري 8/391].

وهو العذاب الذي عذب الله به قوم لوط لما كفروا وارتكبوا الموبقات فقال: {فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} [العنكبوت: 40] وقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ} [القمر: 34].

وهو قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 82، 83].

ونقل القرطبي في تفسيره {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 83]. عن مجاهد أنه قال: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد.

وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد. [تفسير القرطبي 9/83].

وهو العذاب الذي عذب الله به أصحاب الفيل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} [الفيل: 4-1].

ومن جنسه الحد الذي جعله الله عقوبة للزاني المحصن، وهو الرجم.

والحاصب هو العذاب الذي حذر الله قريشًا به فقال: {أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 17].

وقال: {أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الإسراء: 68].

5. الخسف:

والخسف هو كما عرفه القرطبي هو "الذهاب في الأرض" [تفسير القرطبي 13/318] وهو ذهاب المكان ومن عليه وغيبوبته في بطن الأرض.

وهو عذاب الله لقارون لما بغى وأفسد فقال: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} [القصص: 81]، {وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} [العنكبوت: 40].

وهو أحد أنواع العذاب التي تكون في آخر الزمان كما في حديث عمران بن حصين حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، إذا ظهرت القينات والمعازف، وشرب الخمور)) [الترمذي ح 2138 ونحوه في أبي داود].

وقد حذر الله العصاة من هذا العذاب {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النحل: 45]، وقال: {إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} [سبأ: 9].

ومن صور الخسف الزلازل التي تميد بالأرض فتخرب المدن بعد عمارها، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم أن الزلازل تكثر بين يدي الساعة قال صلى الله عليه وسلم: ((لا تقوم الساعة حتى تقتل.... وتكثر الزلازل)) [البخاري ح 7121].

قال ابن حجر: "وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها" [فتح الباري 13/87].

6. الجوع والعطش وضيق الأرزاق:

وهو ما عذب به قوم سبأ حيث قال: {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ} [النحل: 112]، وقال أيضا: {وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ} [سبأ: 16، 17].

{ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [العنكبوت: 41].

قال ابن كثير: "بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي ليذيقهم بعض الذي عملوا"، وقال: "يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه على صنيعهم {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي عن المعاصي" [تفسير ابن كثير 6/327].

وقال صلى الله عليه وسلم محذرًا من وقوع بعض هذا البلاء: ((يا معشر المهاجرين .. خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن .. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا)) [ابن ماجه ح 4019، والحاكم (4/540) ووافقه الذهبي على تصحيحه].

7. الخوف والفرقة وتسليط الأعداء والذل وكثرة القتل والحروب:

وهذا النوع من العذاب عذب الله به بني إسرائيل فجعلهم فرقًا كثيرة وأضاف إلى ذلك الهوان والذلة إلى يوم القيامة {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ} [الأعراف: 167].

وقد صدق الله فكانوا أذل الأمم وأرذلها، وما نراه اليوم من عز وسؤدد فإنما هو بسبب تخاذل المسلمين عن قتالهم، ومصانعة النصارى لهم بحجة أنهم الشعب المبارك، وذلك قوله تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ} [الأعراف: 112].

ومنه قوله تعالى: {قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: 65].

وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن:....، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)) [ابن ماجه ح 4019، والحاكم (4/540) ووافقه الذهبي على تصحيحه].

8. المسخ:

وهو كما عرفه المباركفوري التغير في الصورة [تحفة الأحوذي 3/151].

وقد عذب الله بني إسرائيل عندما اعتدوا في السبت {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ} [البقرة: 65]. وقال: {وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ} [المائدة: 60].

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله، فقال صلى الله عليه وسلم: ((يكون في هذه الأمة أو في أمتي خسف أو

مسخ أو قذف في أهل القدر)) [الترمذي ح 2152، ابن ماجه 4061].

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: ((في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف فقال رجل: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور)) [الترمذي ح 2138 ونحوه في أبي داود].

وعن ابن حبان: ((لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي خسف ومسخ)) [صحيح ابن حبان ح 1890 بإسناد حسن].

قال ابن تيمية: "المسخ واقع في هذه الأمة ولا بد، وهو واقع في طائفتين: علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين قبلوا دينه، والمجاهرين المنهمكين في شرب الخمر والمحارم..".

وقال: "إنما يكون الخسف والمسخ إذا استحلوا هذه المحرمات بتأويل فاسد فإنهم لو يستحلوها مع اعتقاد أن الشارع حرمها كفروا ولم يكونوا من أمته، ولو كانوا معترفين بحرمتها لما عقبوا بالمسخ كسائر من يفعل هذه المعاصي، مع اعترافهم بأنها معصية".

9. الأمراض والبلايا والطواعين:

وهو نوع آخر من العذاب يصبه الله على الأمم المتجبرة الكافرة أو المسلمة العاصية، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث أسامة بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الطاعون رجسٌ أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم)) [البخاري ح 3214، مسلم ح 4108].

وقد توعد الله فيه عصاة الأمم فيما جعل الطاعون رحمة وشهادة لهذه الأمة قال صلى الله عليه وسلم: ((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)) [ابن ماجه ح 4019، والحاكم (4/540) ووافقه الذهبي على تصحيحه].

قال القرطبي: "الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة". [تفسير القرطبي 9/292].)

وأخيرًا ألم يأن للقرية الظالم أهلها أن ترجع وتعود قبل أن تستفيق على عذاب من الله باستئصالها وهلاكها وأخذها بظلمها وجبروتها فى يوم لا ينفع فيه ندم ولا يقبل منها رجوع وعودة.

المصادر:

– تفسير القرطبى والتفسير الكبير وتفسير السعدى.
– الاعتبار بمصارع الأمم للدكتور منقذ بن محمود السقار (الملف العلمي).
– أسباب هلاك الأمم السابقة للدكتور/ محمد راتب الأندلسي.
– سنن الله فى عقاب الأمم: موقع الشيخ / حامد العلى بقلم شروق الشمس.